

والثقة والاطمئنان، أمام القلوب التي خيل إلى الطاغية أنه يملكها كما يملك الأبدان، وأنه موقف حاسم جاسم في تاريخ الإنسان يكرره القرآن بمختلف المجالات المؤاتية، فإنه يكرس انتصار الإنسان على الشيطان ﴿فِي أَيِّ آءِ الرَّبِّ كَيْفًا تُكذِّبَانِ﴾^(١)؟.

فلقد أفلست المادية العمياء البكماء الصماء أمام الإيمان الصامد من هؤلاء السحرة المهرة الذين كانوا يسألون فرعون أجراً على عمالتهم، حيث انقلبوا إلى مؤمنين مستعلين على الطاغية بكل جرأة واصطبار، مستهينين بكل تهديد ووعيد، صابرين على كل ألوان التنديد والتبديد!.

وهنا يذهب التهديد هباءً، ويتلاشى الوعيد سدىً، ويمضي الإيمان الوضاء في طريقه الوضيء دون تفلُّت ولا تفلُّت حيث لا يحيد والله من وراءهم رقيب عتيد^(٢).

وذلك درس لنا صائب أن ليس الكفر الحاضر دليلاً على سوء العاقبة كما الإيمان الحاضر لا يدل على حسن العاقبة، فقد عاش سحرة فرعون كفرةً «فرجعوا مؤمنين»^(٣).

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنْقُبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾^(١٧٧) :

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

(٢) راجع تفاصيل أكثر حول قصة موسى وفرعون إلى سورتي طه والشعراء.

(٣) نور الثقلين ٢: ٥٦ في الكافي عن عبد الله بن القاسم عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عن جدّه عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام : كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو - إلى أن قال - : «وخرجت سحرة فرعون يطلبون العزة بفرعون فرجعوا مؤمنين» وفيه عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ومن ذهب يرى أن له على الآخر فضلاً فهو من المستكبرين، فقلت له: إنما يرى أن له عليه فضلاً بالعافية إذا رآه مرتكباً للمعاصي، فقال: هيهات هيهات فلعله أن يكون غفر ما أتى وأنت موقوف تحاسب أما تلوت قصة سحرة موسى صلوات الله عليه... .

علّ ﴿الْمَلَأُ﴾ هنا هم ﴿الْمَلَأُ﴾ هناك، فاللّام - إذاً - لعهد الذكر، كما اللّام في الأول للتعريف، فهم ملاً معروفون بهذه الاستثمارات والشوراءات العليا بشؤون الملك.

هنا لما خسروا صفقتهم تلك في إرجاء موسى لتلك المباراة الهامة، لم يجدوا بداً من استئصال موسى والذين معه بدعوته، وتساءلوا فرعون في شأنهم ﴿أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ضدّ السلطة الروحية والزمنية الفرعونية ﴿وَيَذَرَكُ﴾ وأنت الرب الأعلى ﴿وَأَهْلَيْتَكَ﴾ وهم أربابك المنتخبون ﴿قَالَ سَنْقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ لكي يفنوا عن بكرتهم ﴿وَسَتَّجِيءُ نِسَاءَهُمْ﴾ إبقاء لهن أحياء وإزالة لحيائهن، فماذا يبقى بعد لهم؟ ثم ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ برقابة قوية تامة طامة إياهم فلا يستطيعون حراكاً ولا عراقاً ضد سلطتنا.

وهذه سياسة مدروسة إبليسية لتضعيف ساعد الدين والدينين أن يقضى على المساعدين المناصرين للداعية، فتخدم دعوته، وتحمد دعايته، فلا يقدر على تحريك ساكن أو إسكان متحرك.

وهذه مرحلة ثانية من مراحل القضاء الفرعوني على الدعوة الموسوية، ومن ثم تصميم في الصميم، خطوة ثالثة من الخطوات الإبليسية أن يقتل الداعية: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾^(١).

وترى حين يدعي ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(٢) فما هو موقف ﴿وَأَهْلَيْتَكَ﴾؟ قد تعني ﴿وَأَهْلَيْتَكَ﴾ الآلهة الفروع التي ادعى أنه ربهم الأعلى فهم الأدنون، أم ان هذه الدعوى تأخرت عن هذا الموقف إلى موقف ثان وكما يلمح من

(١) سورة غافر، الآية: ٢٦.

(٢) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

آيتها: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٦﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٨﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٩﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٣٠﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٣١﴾ ﴿١﴾ .

فقول الملا: ﴿وَالهتكت﴾ كان في الموقف الأول بعد خسارهم في المباراة، وقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ كان في حشر ثان تجديداً للبيعة وقبيل ما أخذه الله نكال الأولى حيث أغرقه وملاه.

وهكذا ترفع الطاغية الذي كان يحسبه في عداد سائر الآلهة أنه الرب الأعلى، ثم خطوة ثالثة هي توحيد في ألوهيته: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...﴾ ﴿٢﴾ .

ولأنه في دعوى ربوبيته الأعلى ثم توحيد فيها يخاطب قومه، فقد يعني أعلى الربوبيات وتوحيدها بين قومه فقط دون العالمين أجمعين، وقد لا ينافي ذلك أن كانت لهم آلهة غيره، حيث هو الأعلى وغيره الأدنى والأوسط، وانه الوحيد في الربوبية العليا.

وهنا الإفساد في الأرض المدعى على موسى لا يعني إلا الدعوة إلى توحيد الربوبية الذي يصادم ألوهة فرعون الأعلى وسواها، وألوهة سائر الإلهة، حيث التوحيد يعني - تلقائياً - بطلان شرعية الحكم الفرعوني وقلب نظامه عن بكرته.

ف ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ تُناقض تماماً ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ فليقض على كلمة التوحيد بداعيتها والذين معه استقلالاً للحكم الفرعوني فيبقى دون منازع ولا ند.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٨﴾﴾ :

(١) سورة النازعات، الآيات: ٢٥-٢٠.

(٢) سورة القصص، الآية: ٣٨.

طمأنة بالغة من موسى الرسول لقومه المهتدين بتكرار العذاب المتواتر عليهم قبل أن يأتيهم، وذلك على قواعد أربع يبنى عليها صرح الإيمان والاطمئنان.

١ - ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ في هذه الورطة الحالكة الهالكة، ٢ - ﴿وَأَصْبِرُوا﴾ في الله على ما يصيبكم في سبيله، ٣ - ﴿إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مَنْ عِبَادِهِ﴾ وليست لأحد سواه، ٤ - ﴿وَالْعَقِبَةُ﴾ وهي الحياة العاقبة الصالحة هنا وفي الأخرى ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ دون الطاغين، والمصداق الأجلى للحياة العاقبة هو الدولة الأخيرة الموعودة لزمان القائم الموعود عليه السلام للمتقين، كما في آيات وروايات عدة ومنها ما يروى عن الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام إجابة عن توبيخ هشام: أيها الناس أين تذهبون وأين يراد بكم، بنا هدى الله أو لكم وبنا يختم آخركم فإن يكن لكم ملك معجل فإن لنا ملكاً مؤجلاً وليس بعد ملكنا ملك لأننا أهل العاقبة يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ...﴾^(١).

فالاستعانة بالله في الهزاهز، والصبر على المكروه وترك اللذائذ، هما مما يورثان أصحابها أرض الله وحسن العاقبة في الحياة، ولكن قوم موسى لم يكونوا بأقل شراسة ونحوسة من قوم فرعون حيث كانوا يواجهونه بكل تأليب وتأييب:

(١) نور الثقلين ٢: ٥٧ في أصول الكافي عن أبي بكر الحضرمي قال: لما حمل أبو جعفر إلى الشام إلى هشام بن عبد الملك وصار يبابه قال لأصحابه ومن كان بحضرته من بني أمية: إذا رأيتموني قد وبخت محمد بن علي عليه السلام ثم رأيتموني قد سكت فليقبل عليه كل رجل منكم فليوبخه، ثم أمر أن يؤذن له فلما دخل عليه أبو جعفر عليه السلام قال بيده: السلام عليكم فعمهم جميعاً بالسلام ثم جلس فازداد هشام عليه حنقاً بتركه السلام عليه بالخلافة وجلوسه بغير إذن فأقبل يوبخه ويقول فيما يقول له: يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شق عصا المسلمين ودعى إلى نفسه وزعم أنه الإمام سنفهاً وقلة علم ووبخه بما أراد أن يوبخه فلما سكت أقبل عليه القول رجل بعد رجل يوبخه حتى انقضى آخرهم فلما سكت القوم نهض عليه السلام قائماً ثم قال: أيها الناس... فأمر به إلى الحبس...

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَوَيْلٌ لِمَنْ بَعْدَ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١١٤﴾﴾:

فَجِئْتُكَ فجيعة كما قبل جيئتك، فهما سواء لنا فما هي عائدتك وفائدتك حتى نطمئن بها ونؤمن لك؟ ﴿قَالَ﴾ لا تستعجلوا ناظرين إلى عجلة الأمر، مع أنها تتبنى إجالتكم حيث تغلبنا على فرعون في المباراة وذلك حاضرة جيئتي، وأما مستقبلها ف﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ﴾ على طوله وحوله وقوته وضعفكم ثم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ فِي الْأَرْضِ﴾ بديله ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ بعدما يعلم كيف تعملون.

ذَلِكَ ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾^(١) و«الدهر يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر فبكلهما ستختبر».

هذا، ولقد بدأوا موسى الرسول ﷺ بهذه القولة اللاذعة وهو يطمئنهم ويأمرهم ويرجيهم برحمة من الله، ولكن لا حياة لمن تُنادي، فإسرائيل هي إسرائيل صَلَّته صَلَّته وقحة!

وهنا بعدما يعدهم موسى باستخلاف الأرض ينبههم أنه ابتلاء من الله دون فوضى جزاف، وادعاء أنهم أبناء الله وأحباؤه!

وترى ﴿تَعْمَلُونَ﴾ تختص بعمل الجوارح؟ إنه حين يقرن بقال أو حال، يعني عمل الجوارح، وهو الطليق عما سواه يعم مثلث الأعمال قالاً وحالاً وأعمالاً.

وقد روي عن أبي عبد الله ﷺ في الإجابة عن سؤال: أخبرني أي الأعمال أفضل عند الله؟ قال: ما لا يقبل الله شيئاً إلا به؟

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

قيل: وما هو؟ قال: الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو أعلى الأعمال درجة، وأشرفها منزلة، وأسنها حظاً - قيل: ألا تخبرني عن الإيمان أقول هو وعمل، أم قول بلا عمل؟

فقال: الإيمان عمل كله، والقول بعض ذلك العمل بفرض من الله بين في كتابه، واضح نوره، ثابتة حجته، يشهد له به الكتاب ويدعوه إليه - قيل: صفه لي جعلت فداك حتى أفهمه؟ قال: الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص البيّن نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه - قيل: إن الإيمان ل يتم وينقص ويزيد؟ قال: نعم، قيل: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرقه فيها، فليس من جارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها: فمنها قلبه الذي به يعقل ويفقه ويفهم، وهو أمير بدنه الذي لا ترد الجوارح ولا تصدر إلا عن رأيه وأمره، ومنها عيناه اللتان يبصر بهما، وأذناه اللتان يسمع بهما، ويداه اللتان يبطش بهما، ورجلاه اللتان يمشي بهما، وفرجه الذي الباه من قبله، ولسانه الذي ينطق به، ورأسه الذي فيه وجهه - فليس من هذه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها، بفرض من الله تبارك اسمه، ينطق به الكتاب لها، ويشهد به عليها - ففرض على القلب غير ما فرض على السمع، وفرض على السمع غير ما فرض على العينين، وفرض على العينين غير ما فرض على اللسان، وفرض على اللسان غير ما فرض على اليدين، وفرض على اليدين غير ما فرض على الرجلين، . . . فأما فرض القلب . . . (١).

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَّصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ (١٣٠):

(١) الكافي ٢: ٣٣ - ٣٧ وفيه تفاصيل ووظائف الجوانح والجوارح.

هذه الآية والخمس الآتية هي آيات ست لفرعون وملاؤه، ثم آيات تسع لبني إسرائيل وكما قال الله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ...﴾ (١) والجمع بينها وبين هذه الست بيناه على ضوء الآية في الأسرى» (٢).

ذلك من مشارف إهلاكهم كما وعد الله ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ﴾ و﴿يَالسَّيِّئِينَ﴾ جمع السنة ولكنها هنا سنة الجذب فإنها هي من أخذة العذاب، دون أصل السنة الشامل لكل الكائنات، ثم وهي الجذب المتراوح سنة دون سنة كسنين يوسف، وكما يروى عن النبي ﷺ: «اللهم اجعلها عليهم سنيئاً كسنين يوسف».

وسني الجذب والقحط في أرض مخصبة معطاء كمصر تبدو ظاهرة قاهرة تلفت الإنظار، أنها الإنذار الداعي لليقظة بعد النومة والنبهة بعد الغفلة، فلو أن فرعون هو الرب الأعلى فكيف عجز عن استمرارية الجذب الذي هو قضية طبيعة الأرض المصرية؟.

ثم ﴿وَنَقِصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وعلّها تجمع إلى ثمرات الزروع والأشجار وسائر الثمار التجارية والصناعية، ثمرات الأولاد، عكسية ماثلة بين أيديهم بما قتلوا أبناء بني إسرائيل واستحيوا نساءهم جزاءً وفاقاً، فأين إذاً ﴿مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ (٣) وقد كان يعرضها بمعرض الناس دليلاً على رجاحته على موسى ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (٤).

هنا عجالة يأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات دون أن يستأصلهم بأسرهم، إجمالة للنظر في سنن الله بوعدته ووعيدته، ولكنهم لغلظ حسهم وانقلاب فطرتهم وعقليتهم لم يكونوا ليتنبهوا إلى العلاقة الوطيدة بين كفرهم

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠.

(٢) ج ١٥ : ٣٦١ - ٣٦٣ فراجع.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٥١.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٥٢.

وطغيانهم وبين أخذهم بالسنين ونقص من الثمرات في مصر التي كانت ولا تزال تفيض بالخصب والعطاء، إلا ما كان زمن يوسف تذكيراً للسلطة الجبارة، وفسحاً لمجال الدعوة الربانية ليوسف.

ذلك، بل هم زادوا غباوة وطمغياناً على ضوء السنين ونقص من

الثمرات:

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾:

فمن ﴿الْحَسَنَةُ﴾ سنة الإخصاب وتمام الثمرة، كما من «السيئة» سنة الجذب ونقص من الثمرات، فعند مجيء الحسنه ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ حسنة مستحقة بكل جدارة ولباقة، ثم عند مجيء السيئة ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أنه هو سبب السيئة ﴿أَلَا﴾ أيها النابهون ﴿إِنَّمَا طَّيَّرْتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يجازيهم به سيئة بسيئة، وهكذا كانوا يعللون مختلف الأحداث «حسنة وسيئة» تعليلاً عليلاً كليلاً خلواً عن الواقعية عقلية وعلمية وعقيدية وطبيعية، فما هي القاعدة التي تحكم بأن الحسنات في الحياة هي مستحقة للجبارين الطالحين، ثم السيئات فيها هي من مخلفات دعوات الصالحين، اللهم إلا هياماً مع الخرافة في دروب ملتوية متفرقة لا تلتقي عند قاعدة ولا تجتمع وفق نظام، فاللهم إلا الصدفة العمياء الفوضى الجزاف كما قاله خروشوف صاحب الاشتراكية العلمية عن معاكسات الطبيعة في تحليل نقص الثمرات والغلات، ومعه كل هؤلاء الذين يمضون مع هذه «العلمية» الجاهلية غابرة وفي القرن العشرين، المدعاة في تحليل الحوادث بهذه النظرة القاصرة الباسرة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (١)!

(١) سورة الروم، الآية: ٧.

هكذا يتطير المجاهيل في تيارات الحوادث والكوارث أنها من نكبات حملة الدعوات الربانية، فالحسنة التي تجيئهم هي من حسن حظهم المستحق، والسيئة هي من شؤم من يخالفهم في شهواتهم وحيواناتهم وإباحياتهم الطليقة! .

وهكذا نجد كل طغاة التاريخ على مدار الرسالات الربانية، ففي صالح لَمَّا ﴿٤٦﴾ قَالَ يَنْقُورُ لِمَ سَتَعَجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا سَتَعَفَرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٧﴾ قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَيَمَن مَعَكَ قَالَ طَّيَّرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٨﴾ (١) .

وفي رُسل المسيح ﷺ: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَنَحْمِسَنَّكُمْ مَتَّى عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَّيَّرَكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ (٢) .

فالقرآن يبيّن كلمة واحدة أن طائر كلّ معه وعند الله، معه بما عمل ويستحقه، وعند الله بما يحقّقه علماً وجزاء وفاقاً هنا وفي الأخرى ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَّيْرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ (٣): ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأقلهم يعلمون ولكنهم على علمهم يجحدون، و﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ هنا جهالة عن تقصير يندد بها كما يندد بالعالمين .

فالطائر هو العمل اعتباراً بطيرانه إلى الغير أم إلى الفناء كما يخيل إلى المجاهيل، واعتباراً بطيرانه إلى نتائجه هنا وفي الأخرى لأنه لا يفنى ولا يطير إلى غير عامله، كما يقول الله (٤) .

(١) سورة النمل، الآيتان: ٤٦، ٤٧ .

(٢) سورة يس، الآيتان: ١٨، ١٩ .

(٣) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤ .

(٤) وأصل التطير ما كان الجاهليون في وثنيهم يزاولونه فقد كان منهم من إذا أراد أمراً جاء إلى =

فالتطير بالغير هو تخيل أن شؤم الغير بعمله يطير إلى غير عامله، فلما كانوا يتشأمون بدعاة الحق، كانوا يحسبون كل سيئة تصلهم أنها من جرّاء شؤم هؤلاء الأكارم، وكل حسنة هي مستحقة لهم أنفسهم وهكذا ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾^(١).

ذلك، ولم يكتفوا في هذه الخطوة الثانية الخاطئة - بعد رمي موسى بالسحر - إلا أن غالوا في عتوهم:

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٢):

وهنا يسمون ما يأتي به موسى ﴿آيَةٍ﴾ هزأً ومهانة بها حيث تعقبها ﴿لِنَسْحَرَنَّ بِهَا﴾ أم وإيقاناً بها حيث ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^(٢) فقد صدّوا على أنفسهم كل منافذ النور والإيمان حيث حلقوا ذلك النكران على كل آية دونما استثناء ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إعلاناً جاهراً بكفر طليق على أية حال، إذا فهنا استحقاق عذاب الاستئصال دون إبقاء لأي مجال، ولكن الله يمهلهم - مع الوصف - حتى حين:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾^(٣):

ففي خضمّ خماسية هذه الآيات المفصلات خماسيتهم استئصالاً لعلوائهم أمامها حتى تطلبوا إلى موسى أن يكشف عنهم الرجز فيؤمنوا ولكنهم ناكثون! .

= عش طائر فهيجه عنه فإذا طار عن يمينه - وهو السانح - استبشر بذلك ومضى في الأمر الذي يريده وإذا طار الطائر عن شماله - وهو البارح - تشاءم به ورجع عما عزم عليه فأبطل الإسلام هذا التفكير الخرافي وأصل محله التفكير العلمي الصحيح والعمل، وقد شرحنا حول الطائر على ضوء آية الأسرى فراجع.

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.